« سانياسى » أو الزاهد

مسرحية رمزية رائعة لشاعر الهند طاغور

ترجمة الأستاذ فخرى شهاب السعيدى

[بقية ما نشر فى العدد الماضى]

(يدخل رجال حاملين شخصا فى فراش)

الأول : إنه ما يزال نائماً

الثانى : ما أثقل هذا اللعين

مسافر (خارج من الجماعة) : من هذا الذى تحملون ؟

الثالث : إنه « بندى » الحائك الذى ينام نوم الأموات ، وها نحن أولاء قد حملناه لنتأى به

الثانى : ولكنى تعب أيها الرفاق فدعونا نهزه هزاً عنيفاً لنوقظه

بندى : (مستيقظا) : إيه ؟ ... آ .. أو ...

الثالث : ما هذا الصوت ؟

بندى : من أنتم يا هؤلاء ؟ إلى أين تذهبون بى ؟ (يضمد من مواتقهم الفراش)

الثالث : ألا تستطيع المحافظة على السكينة مثل سائر الأموات المحنشين ؟

الثانى : تلك حماقته ، توجب عليه السكلام وإن يكن ميتاً !

الثالث : لقد كان يحلق بك أن تلزم جانب الصمت

بندى : إنى لآسف إذ أخلف ظنكم يا سادة ، لأنكم أخطأتم فما أنا بميت وما كان اعترانى غير سنة من النوم العميق

الثانى : إنى لأتعشق سلاطة هذا الرجل تعشقاً ! فهو لا يموت لحسب ، وإنما يموت تجادلاً

الثالث : إنه لن يعترف بالحقيقة ؛ فلنذهب لإعداد شعائر الميت وإتمامها

بندى : أقسم لكم بكرامة لحاكم هذه إنى حى مثلكم

سانياسى : لقد استغرقت الفتاة فى نومها متوسدة ذراعها تحت رأسها الصغير ، وما أرى إلا أن أدعها وأذهب الآن . ولكن هل يجب أن تلوذ بالفرار ، أيها الجبان ؟ هل تلوذ بالفرار من هذا السكائن الصغير ؛ إنما هذه فى الطبيعة أنسجة عنا كبها وما ينال خطرها غير الفراش ولا يتجاوزه ليبلغنى أنا الزاهد سانياسى

(تنبه « فاسنتى » مذعورة)

فاسنتى : هل تركتنى يا سيدى ؟ هل ذهبت عنى ؟

سانياسى : وما الذى يوجب ابتعادى عنك ؟ مِمَّ أخاف ؟ أوَ أرتاعَ من ظل ؟ !

فاسنتى : هل تسمع اللغط فى الطريق ؟

سانياسى : ولكن السكينة مخيمة على نفسى

(تدخل امرأة شابة ومن ورائها بعض الرجال)

المرأة : اذهبوا الآن ، غادرونى لا تتحدثوا إلىّ فى الحب

الرجل الأول : وَيلِه ؟ ما هو ذنبى ؟

المرأة : إن قلوبكم ـ يا أيها الرجال ـ قد قُدَّت من الصخر

الرجل الأول : كلام لا سبيل إلى تصديقه . إذا كانت قلوبنا مقدودة من الصخر فكيف تمكنت منها سهام « كيوبيد » إذاً !

رجل آخر : أحسنت . صدقت

الرجل الثانى : والآن ، فبماذا تجيبين على قوله يا عزيزتى ؟

المرأة : أتريد جواباً ؟ وهل حسبت أنك قلت شيئاً حسناً ! إنما هذا هذر محض

الرجل الأول : إنى أحتكم إليكم أنتم أيها السادة . لقد كان قولى : إنه لو كانت قلوب الرجال قد نحتت من الصخر، فكيف ...

الرجل الثالث : نعم ، نعم ، ليس على هذا الكلام من جواب

الرجل الأول : والآن ، فلأشرح لكم هذا : قالت إن قلوبنا نحن الرجال ، مقدودة من الصخر ، أليس كذلك ! حسن ؛ فأجبتها إن كانت قلوبنا من الصخر حقاً فكيف استطاعت سهام « كيوبيد » أن تنالها بالتخريب ؟ أتفهم ؟

الرجل الثانى : لقد كنت أبيع الدبس منذ أربعة وعشرين عاماً فى المدينة يا أخى ، أفتظننى لا أفهم ما تقول ؟ [ينصرفون]

سانياسى : ماذا تصنعين يا طفلتى ؟

فاسنتى : إنى أحدِّق فى راحتِكَ الواسعة يا أبتِ ! وكأن يدى طير صغير قد وجد عشه فيها . إن راحتكَ فسيحة كهذه الأرض التى تتسع لكل شىء : هذه الخطوط أنهارها ، وتلك فيها التلال . (تضم خدها على راحته)

سانياسى : إن مَلمسَكِ لناعم يا بنيتى كملمس النوم ، وإنه ليخيل إلىّ أن فى هذه اللمسة أثراً عظيماً من آثار الظلام الذى يجرح النفس جرح الأبد الخالد ؛ ولكنك يا طفلتى لست سوى فراشة النهار : لك طيورك وأزاهير حقولك . فماذا تستطيعين

أن تجدى فىّ أنا الذى حصرت مركزى فى الوحدانية ؟

فاسنتى : لا أريد شيئاً آخر غير حبّك هذا فإنه يكفينى

سانياسى : تنوهم الفتاة أنى أحبها ، فيا لَذّات القلب الطائش ! إنها سعيدة بهذه الفكرة فلنتمّها وتشجّعها ! دعها تتعلّل بى لأنهم قد نشأوا فى أحضان الوهم فلا بد لهم منه لتسليهم

فاسنتى : يا أبت ، هذه العُصْبَة[1] التى تمتد على العشب فى التماس شجرة تلتف حولها إنما هى عُصبتى : لقد تعهدتها وأرويتها منذ أن نجمتْ منها ناجتان من صغار الورق فى الهواء كأنهما صرخة الطفل الصغير . إنى أنا هى تلك العصبة : نشأتْ على جانب من الطريق ، فمن السهل أن تقتلع . هل ترى هذه الأزهار الصغيرة الجميلة ذات اللون الأزرق الفاتح المنقطة قلوبها بالنقاط البيض ؟ ما هذه النقاط سوى أحلامها ! دعنى أمسح جبينك فى لطف بهذه الأزهار ، فعندى أن الأشياء الجميلة إنما هى مفاتيح كل ما لم أرَ وما لم أهتد إلى فهمه

سانياسى : كلا ، كلا ، ما الجمال سوى ضرب من الخداع . وإن الزهرة والتراب فى نظر الحكيم العارف لشىء واحد . ولكن ما هذا الضعف الذى يدب فى عروقى ويسدل على بصرى نقاباً خفيفاً من ألوان قوس قزح جميعها ؟ هل هذه هى الطبيعة تحوك أحلامها من حولى لتضلل حواسى ؟ (ينهض فجأة ساحقا الأزهار) حسبى هذا ، فإنما هو الموت . ما لعبك هذا ، يا أيتها الفتاة ، معى ؟ إنى أنا هو الزاهد « سانياسى » لقد قطعت عُقد نفسى كلها فأنا الآن حر طليق . كلا ثم كلا ، لا تذرفى الدموع فإنى لا أطليق احتمالها ؛ ولكن أين كانت تختبئ هذه الحية فى قلبى أين كان هذا الغضب الذى زحف خارجاً من ظلماته مرهف الناب ؟ كلا ... إذاً فهى لم تمتْ بل ظلت حية لإنشاء المجاعة : هذه المخلوقات الجهنمية قد تجسّمتْ هيا كلَّها المقعقِعة وقامت تتراقص بيننا أخذت أستاذتُها ، الساحرة الخطيرة ، فى إيقاع ألحان شبابها السحرية فى قلبى . لا تبكِ يا طفلة ، وتعالى إلىّ تعالى. إنك لتشبهين فى نظرى صرخة عالم ضائع ، أو نشيد نجم جوال . إنك لتطيفين بذهنى شيئاً أوسع من هذه الطبيعة سعة لا تحد . بل هو أوسع من الشمس والنجوم جميعاً ... إنه لعظيم كالظلام ، وإني لا أدرك كنهه ، ولم أدر ما هو ، وذلك ما يبعث الرعب منه فى نفسى. وعلىّ أن أفارقك ، فبودى من حيث أتيت يا رسالة المجهول

(١) كل نبات لم يقم على ساق قائمة ، بل انتشر على الأرض وزحف حتى تسلق على شجرة يتكئ عليها Creeper

فاسنتى : لا تفارقنى يا أبت ، فإنه ليس لى فى الدنيا من أحد سواك ...

سانياسى : بل يجب على أن أذهب . لقد حسبتُ أننى عرفت ولكنى لما أعرف ، ومع ذلك ، فيجب أن أهتدى إلى العرفان ؛ فأنا أغادرك لأعرف من عساك تكونين !

فاسنتى : أبت ، إن غادرتنى كنت فى الهالكين

سانياسى : اطلقى يدى ولا تمسكى بى ، فإنى يجب أن أتحرر [يخرج راكضا]

— ٣ —

(يشاهد « سانياسى » الزاهد جالسا على صخرة فى شعب جبل . يمر صبى راع مغنيا)

الأغنية : « لا تشح ، يا حبيبى ، بوجهك عنى ؟

« فهذا الربيع قد فتح صدره ،

« وهذه الأزهار تبوح بمكنون سرها فى الظلام .

« وخفيف أوراق الغابة يرتفع فى الفضاء

« مثل ارتفاع حسرات الليل ؛

« فتعال يا حبيبى ، تعال وأرنى وجهك ... »

سانياسى : إنّ ذهب الأصيل ليذوب فى قلب البحر الأزرق وهذه الغابة التى تقوم على سفح الأكمة ترشف آخر أكؤس أنوار النهار . تلك أكواخ القرية نرى إلى اليسار من خلال الأشجار ، وكأن مصابيح المساء المضاءة فيها أمٌّ مبرقعة وقفت ترقب طفلها المستغرق فى النوم

يا أيتها الطبيعة إنما أنت أمى ، لقد نشرت بساطك الهول فى القاعة الفسيحة التى أجلس فيها وحيداً جلسة ملك ، أرقبك تتراقصين وعلى صدرك تلمع ونيتك[1] المنظومة من النجوم .

(تمر الصبايا الراعيات منشدات :)

« تجىء ألحان الموسيقى مما وراء النهر المشمول بالظلام فتنادينى

« لقد كنت فى الدار ؛ وكنت فيها سعيدة ؛

« ولكن لحن الشبابة تعالى فى سكون الليل ،

« فإذا بفؤادى تنتابه وخزة من الألم .

« ألا فلتدلنى على الطريق يا من تعرفها ،

« دلنى على الطريق التى تقود إليه ؛

« فسأذهب إليه بزهرتى الصغيرة الواحدة لأضعها عند قدميه

« وخبره بأن موسيقاه وحبى شىء واحد ! » [يتحدن]

(١) ضرب من العقود

سانياسي : أحسب أن مثل هذا المساء قد طرأ على مرة واحدة طوال حياتي ؛ فأترع كأسه إلى حافته بالحب والموسيقى ، وجلست مع شخص يعيد ذكرى وجهه إلى مرأى نجمة المساء ...

ولكن أين هي فتاتي الصغيرة ذات العينين السوداوين الحزينتين اللتين تترقرق فيهما الدموع ؟ أهي جالسة هناك خارج كوخها تحدق في نجمة المساء ذاتها من خلال وحدة المساء الجليلة ؟

ولكن لا بد للنجمة من أفول ، ولا بد للمساء من إغماض عينيها في الليل ؛ فأما الدمع فسيرقأ حتماً ، وأما الحسرات فسيهدئها النوم بغير شك . لا ، لن أقفل راجعاً ، ولتثبت لأحلام العالم أشكالها ؛ لن أعترض سبيلها ، ولن أختلق لها أوهاماً جديدة ، فلسوف أبصر ، ولسوف أتفكر وأعرف

(تدخل فتاة في أصيل باكية)

الفتاة : أنت هنا يا أبت ؟

سانياسي : تعالي واجلسي بجانبي يا طفلتي . وبودي أن لو استطعت للكت دعوتكم لنفسي . لقد دعاني بعضهم بـ « يا أبت » مرة ، وكان الصوت يشبه صوتك بعض الشبه ، وها إن الأب يجيب الآن ، ولكن أين هو النداء ؟

الفتاة : من أنت ؟

سانياسي : إني « سانياسي » الزاهد ؛ فخبريني أيتها الطفلة ما مهنة أبيك ؟

الفتاة : إنه يجمع الأحطاب من الغابة

سانياسي : وهل لك أم ؟

الفتاة : كلا ، لقد ماتت إذ كنت طفلة

سانياسي : وهل تحبين أباك ؟

الفتاة : أحبه الحب الذي ما فوقه شيء في هذا الكون . إني ليس لي في الدنيا سواه

سانياسي : لقد فهمتك ، أعطني يدك الصغيرة ، دعيني أمسكها في راحتي ، في راحتي الكبيرة هذه

الفتاة : وهل تحسن يا « سانياسي » قراءة الكف ؟ هل تستطيع أن تقرأ كل ما في حاضري ومستقبلي من كتب ؟ !

سانياسي : أحسب أنني أستطيع ، ولكن عسير علي إدراك معناه ، ولسوف أعرف المعنى ذات يوم

الفتاة : يجب أن أبادر للقاء والدي

سانياسي : أين ؟

الفتاة : في الطريق المؤدية إلى الغابة ، فإنه سيفتقدني إن لم يجدني هناك

سانياسي : قربي رأسك مني يا طفلتي . تعالي أقبلك قبلة التبريك قبل أن تذهبي [تغادره الفتاة]

(تدخل امرأة وطفلتان)

الأم : ما أقواكما وما أثقلكما يا ابنتي « ميسيري » ! أما إنهما لمتعة للنظر ! وما أراكما ، كلما أطعمتكما إلا قد زدتما هزالاً يوماً فيوماً !

الطفلة الأولى : ولم أراك تلومينا على هذا يا أماه ؟ هلا فهمنا هذا !

الأم : ألم آمركما بالإخلاد إلى الراحة ؟ ولكنكما لا تفتآن تتراكضان من هنا وهناك

الطفلة الثانية : ولكنما نركض في خدمتك يا أم

الأم : كيف تتجرئين على هذا الكلام ؟

سانياسي : إلى أين تريدين يا ابنتي ؟

الأم : لك تحيتي واحترامي يا أبت . إننا في طريقنا إلى الدار

سانياسي : وكم شخصاً أنتم ؟

الأم : زوجي وأمه وطفلتان أخريان غير هاتين

سانياسي : وكيف تقضون أيامكم ؟

الأم : صعب علي أن أعرف كيف تمضي الأيام . أما زوجي فيخرج إلى الحقل ، وأما أنا فأنصرف إلى منزلي أدبر شئونه ؛ فإذا أقبل المساء جلست مع كبريات بناتي للغزل (مخاطبة الطفلتين) اذهبا فحييا الزاهد . باركهما يا أبت [يخرجن]

(يجيء رجلان)

الأول . ارجع من هنا يا صديقي ولا تعد أبداً

الثاني : نعم ، أدري ، فالأصدقاء إنما يجمعهم الاتفاق ، والاتفاق هو الذي يحملنا إلى بعض الطريق معاً ثم تحين اللحظة التي يتحتم فيها الفراق

الصديق الآخر : ولكن لنحمل أمل الاجتماع بعد الفراق

الصديق الأول : إنما يسود اجتماع الشمل وتشتته إلى سير العالم كله ، ولن ترعانا النجوم رعاية خاصة بنا !

الصديق الثاني : فلتحي النجوم التي جمعتنا إذاً سواء ، فإن ذلك لو كان للحظة واحدة فهو خير كبير

الصديق الأول : تريث لحظة قبل أن تذهب . هل تستطيع أن ترى لمعان الماء القليل في الظلماء ، وأن ترى أشجار « الجزورين » على الضفة الرملية من النهر ؟ لكأن قريتنا كومة من الظلال القاتمة السود . إنك لا تتبين منها غير الأنوار فهل تستطيع أن تقول أي هذه ضوؤنا ؟

الصديق الثانى : نعم أحسبنى أستطيع

الصديق الأول : إن ذلك النور هو نظرة التوديع التى تلقى بها أيامنا الخالية على ضيوفها الراحلين ، ثم إذا أوغلت قليلاً فهنالك تجثم الظلماء [يخرجان]

سانياسى : هذا الليل يشتد ظلمة ووحشة ، وكأنه فى جلسته هذه المرأة المهجورة . وهذه النجوم دموعها قد انقلبت ناراً . لقد ملأ حزن قلبك الصغير ياطفلتى جميع ليالى حياتى حتى الأبد . ويدك المشتاقة الصغيرة قد تركت أثر ملمسها فى هواء هذا الليل ! وكأنى أحسها على جبينى مخضلة بدموعك . أى حبيبتى ! إن حسراتك التى تابعتنى يوم أن هربت قد تعلقت الآن بقلبى ، وسأحملها إلى مماتى

— ٤ —

(سانياسى فى محرفة القرية)

لتذهب نذور زهدى هباء ، فقد كسرت عكازى وحطمت كشكولى ، وهذه السفينة العظيمة ، هذا الكون الذى يشق عباب الزمان ليحملنى على متنه تارة أخرى كيما أدرك الحجاج ثانية ، واهاً للمجنون الذى يسبح فى البحث عن السلامة وحيداً رافضاً أشعة النجوم ونور الشمس معتمداً فى التماس سبيله على ضوء مصباحه الدورى . إن الطير ليحلق فى الفضاء ليعود إلى هذه الأرض العظيمة ، لا لكى يضل فى الفراغ ! إنى طليق من أغلال الانتفاء غير المجسدة . إنى متحرر من قيود الأشياء والأشكال والغايات والمحدود هو فى الحقيقة غير المحدود ! وإن الحب ليعرف حقيقته . يا فتاتى إنما أنت روح ذلك كله ، فلن أستطيع إلى تركك سبيلاً

(يجىء رئيس القرية)

سانياسى : هل تعلم يا أخى أين تكون ابنة « رافو » ؟

رئيس القرية : لقد غادرت قريتها وإنا بذلك لفرحون

سانياسى : وإلى أين ذهبت ؟

الرئيس : وهل تتساءل إلى أين ذهبت ؟ لا فرق عندها حيثما كانت [يخرج]

سانياسى : لقد ذهبت عزيزتى لتبحث لنفسها عن مكان حيث لا مكان فى الفراغ ، فيجب أن تهدى إلى

(يدخل جمهور من القرويين)

الرجل الأول : وإذاً فسيتزوج ابن ملكنا الليلة

الرجل الثانى : وهل تستطيع أن تخبرنى عن ساعة الزفاف متى تكون ؟

الرجل الثالث : إنما ساعة الزفاف للعريس وعروسه فمالك ولها ؟

امرأة : ولكن ألا تراهم سيعطوننا من أجل هذا اليوم السعيد بعض السمك ؟

الأول : بعض السمك ؟ ما أبلدك ! لقد سمعت من عمى الذى يعيش فى المدينة أنهم سيوزعون علينا اللبن والرز المشوى

الثانى : شىء عظيم

الرابع : ولكن تقوا بأنا ستنالنا كمية من الماء أكبر من كمية اللبن

الأول : ما أبلدك يا « موتى » أفى حفلة زواج الأمير يشاب اللبن بالماء ؟

الرابع : ولكنا لسنا بالأمراء يا « بانجو » . إنما لنا — نحن الفقراء — حيلة المذق بالماء الوفير

الأول : اسمعوا ، ذاك ابن الفحام ما يزال منكباً على عمله فيجب أن نقفه على ما هو فيه

سانياسى : هل علم أحد منكم أين تكون ابنة « رافو » ؟

المرأة : لقد خرجت مهاجرة

سانياسى : إلى أين ؟

المرأة : ذلك ما ليس يعلمه أحد

الرجل الأول : ولكنا واثقون بأنها ليست هى عروس الأمير ! [يتفرقون ضاحكين]

(تدخل امرأة ومعها طفلها)

المرأة : تحياتى أرفعها إليك أيها الأب . دع طفلى هذا يحنى رأسه عند قدميك ، إنه مريض فبارك يا أبت

سانياسى : غير أنى لستُ كما كنتُ زاهداً يا بنيتى فلا تسخرى منى باحتراماتك

المرأة : فمن عساك أن تكون إذاً ! وماذا تصنع ؟

سانياسى : إنى أبحث . . .

المرأة : وعمن تبحث ؟

سانياسى : إنى أبحث عن عالى الضائع — هل تعرفين ابنة (رافو) ؟ أين تكون الآن ؟

المرأة : ابنة (رافو) ؟ لقد ماتت !

سانياسى : لا . . . إنها لا تموت . . . كلا . . . كلا

المرأة : ولكن ما أنت وموتها أيها الزاهد ؟

سانياسى : ليس أنا وحدى الذى يعنينى موتها ؛ بل ذلك يعنى موت الجميع

المرأة : إنى لست أفهمك

سانياسى : إنها لا يمكن أن تموت قط !

(تمت المسرحية) فتحى شهاب السعيدى

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)